منهج القرآن الكريم في تنمية التفكير*

محمود الهيشان و محمد ملكاوي، قسم أصول الدين ، جامعة اليرموك

ملخص

هدفت هذه الدراسة إلى بيان منهج القرآن الكريم في تنمية التفكير، فجاءت ضمن ثلاثة مباحث، ذكر الباحثان في المبحث الأول ستة أهداف للتفكير السليم حسبما وردت في القرآن الكريم، وذكرا في المبحث الثاني خمسة عوائق للتفكير السليم حرّر القرآن الكريم العقل منها، وفي المبحث الثالث استنبط الباحثان من آيات القرآن الكريم خمس قواعد منهجية لتنمية التفكير السليم، وأوصى الباحثان بعدة توصيات ركزت على عدم الاكتفاء بمجرد إتقان الطلاب لتلاوة القرآن الكريم وحفظه،بل لابدّ من تدريبهم على التفكير السليم في جميع المراحل الدراسية، وتنمية الاتجاه العلمي التجريبي لديهم.

مقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى بيان منهج القرآن الكريم في تنمية التفكير، وذلك باستقراء أهداف التفكير حسبما وردت في القرآن، ثم بيان منهجه في تحرير العقل من العوائق التي تحدّ نشاطه في التفكير السليم، ثم استخلاص قواعد منهجية في تنمية التفكير السليم، وبخاصة أنّ جميع المؤسسات التعليمية وبرامج التطوير التربوي تَعُدّ التفكير مهارة وفناً يمكن تنميته بالتدرب عليه، ثم دفعه للإبداع في جميع العلوم والمعارف الطبيعية والإنسانية. من خلال العناية بالحواس التي تساعد العقل على التفكير السليم؛ فالتفكير عملية إرادية كسبية يثاب الإنسان باستعمالها الصحيح، أو يُسأل ويحاسب على تعطيلها. وقد استخدم الباحثان المنهج الاستقرائي التحليلي.

المبحث الأول

(أهداف التفكير حسبما وردت في القرآن الكريم)

إنه لَمَا يلفت النظر في كتاب الله عز وجل كثرة الآيات القرآنية الّتي تدعو الإنسان إلى التفكير لتمييز الحق من الباطل، والآيات الكونية لا ندرك جمالها وتناسقها إلا بالتفكير، بل القرآن نفسه لا ندرك علومه وإعجازه إلا بالتفكير، لذلك حرر القرآن العقلَ من العقبات التي تعوق التفكير السليم، ووضع له المعالم الهادية والأسس الثابتة التي تُرشده وتحفزه للتفكير السديد.

© جميع الحقوق محفوظة لجامعة اليرموك 2002. ISSN (1023-0165)

وقد وردت في القرآن الكريم كلمة (فكّر) مرة واحدة ، وكلمة (تتفكروا) مرة واحدة، وكلمة (يتفكروا) مرتين، وكلمة (تتفكرون) ثلاث مرات ، وكلمة (يتفكرون) إحدى عشرة مرة، فهذه ثمانية عشر موضعاً، في موضع واحد منها فقط بصيغة الماضي، وفي سبعة عشر موضعاً بصيغة المضارع الدال على الاستمرار في المستقبل؛ وذلك لأن التفكير هو الذي يحرك جميع نشاطات الإنسان المعرفية، ويهيئ له الاستفادة من الخبرات السابقة، ثم يدفعه للانطلاق من التفكير في المخلوقات إلى التفكير في خالقها عز وجل، فيتولد لدى الإنسان الاعتبار والاتعاظ المؤدي إلى توحيد الله تعالى وخشيته، ثم إلى سلوك إيماني صادق لقوله تعالى: **﴿ ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾** آل عمران (191).

ولهذا جاءت الدعوة إلى نفس التفكّر صريحة في القرآن الكريم، وبأسلوب التحضيض أو بالاستفهام الاستنكاري، من أجل التوصل إلى الأحكام الصائبة، المبنية على الأدلة والمقدمات الصحيحة، وجاءت الدعوة أيضاً إلى جميع العمليات العقلية المرتبطة بالتفكير مثل: النظر والبصر والفقه والتدبّر والاعتبار والتذكر والعلم، فكلها عمليات عقلية يكمل بعضها بعضاً، ومرتبطة بالتفكير ارتباط الفرع بأصله.

ويظهر هذا الترابط الوظيفي بين العمليات العقلية جلياً في كثير من المقاطع القرآنية التي جمعت بين أكثر من عملية عقلية في مشهد واحد. ولذلك يرى الباحثان أنّ التفكير عملية شاملة لكل نشاط عقلي يهدف إلى إعمال الفكر في الشيء وتقليبه على وجوهه للوصول إلى حقيقته، وأقصر ما قيل فيه: ((الفكر: ترتيب أمور معلومة لتؤدي إلى مجهول))(1)

وفيما يلي استنباط أهداف التفكير الدينية والدنيوية حسبما وردت في القرآن الكريم:-

1- الاستدلال على وجود الخالق سبحانه، وتعميق الإيمان بالله، وتوحيده وإفراده بجميع صور العبادات القلبية والقولية والبدنية والمالية (2) .

2- العمل على تمييز الحق من الباطل، من أجل الالتزام بمقتضى الحق الذي اهتدى إليه الإنسان بفكره وصدّقه بقلبه(3) .

3- الكشف عن السنن الإلهية في بناء هذا الكون، وتفسير الحوادث والظواهر تفسيراً صحيحاً؛ لتسخيرها في خدمة الإنسان، و إعانته على القيام بواجب الخلافة في الأرض(4) .

4- التعرف على طبيعة الإنسان وأطوار خَلقِهِ وخصائصه، وما فيه من الحكمة والإبداع، ثم دراسة النفس الإنسانية وصفاتها والأنماط السلوكية المرتبطة بها، فالنشاط الفكري الداخلي في الإنسان هو الذي يوجه سلوكه وتصرفاته الخارجية(5) .

5- الكشف عن السنن الإلهية في حياة المجتمعات البشرية؛ لمعرفة أسباب قيام الحضارات واندثارها، وأنّ ذلك محكوم بسنن ونواميس لا تتخلف.

6- التأكد من صدق المبادئ والشعارات والعقائد وجميع الأمور الدينية والدنيوية، لمعرفة مدى صلاحيتها لإسعاد الإنسان في الدارين.

وبهذا ثبت أنّ دعوة القرآن للتفكّر هي دعوة أصيلة ومقصودة وهادفة، وشاملة لمختلف مجالات النشاط الإنساني، بحيث يكون التفكير منهجاً وأسلوباً متبّعاً في كل شؤون الحياة، وقائماً على النقد والتمحيص والنظر العميق، والتجربة والبرهان، وبذلك تنمو المعرفة، وتترقى الحياة، ويتقدم الإنسان في جميع ميادين العلم والمعرفة.

وقد اشتمل القرآن الكريم على توجيهات عظيمة ذات فائدة كبيرة في مجال تنمية التفكير، ويرى الباحثان أنّ هذه التوجيهات بعضها لتحرير العقل من القيود المانعة من التفكير السليم، وبعضها لتقرير قواعد أساسية في تنمية التفكير، وفيما يلي الحديث عنها.

المبحث الثاني

(تحرير التفكير من العوائق)

بيّن القرآن الكريم العوائق التي تعوق العقل عن التفكير السليم، وحذر منها مبيناً أنها سبب هلاك الكثيرين؛ لأنها حجب كثيفة على العقل، فيلتبس عليه الحق بالباطل، ويرى العقاد(6) أنّ أكبر العوائق ثلاثة:

- عبادة السلف التي تسمّى بالعرف.
- الإقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية.
- الخوف المهين لأصحاب السلطة الدنيوية.

ويرى الباحثان ترتيباً آخر لهذه العوائق مع الزيادة عليها، فجاءت هذه العوائق في ترتيبهما خمسة كما يلي:

أولاً: التقليد:

وهو في رأي القرطبي(7) قبول قول بلا حجة، فيأخذ المقلد برأي غيره دون أن يتبين دليل من قلده، وقد أجمعت الأمة على إبطال التقليد في العقائد.

وقد ورد في القرآن الكريم ذمّ تقليد الأباء في حوالي عشرين موضعاً، ويكتفي الباحثان بذكر أولها، وهو قوله تعالى في سورة البقرة (170) **﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾** وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد.

ومن الأدلة النقلية على بطلان التقليد:

أ- قوله تعالى في سورة يوسف (81) ﴿ **وما شهدنا إلا بما علمنا** ﴾ قال القرطبي(8) في تفسيرها: ((فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلاً وشرعاً، فلا تُسمع إلا ممن علم، ولا تقبل إلا منهم)).

ب- قوله تعالى في سورة البقرة (111) وفي سورة النمل (64) ﴿ **قل هاتوا برهانكم إنْ كنتم صادقين** ﴾ قال الزمخشري(9) في تفسيرها: ((وهذا أهدم شيء لمذهب المقلّدين، وأنْ كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت)).

أما الأدلة العقلية على بطلان التقليد فقد أوردها الغزالي(10)، وأوجزها الباحثان فيما يلي:

أولاً: أن صِدْقَ المقلَّد لا يُعلم ضرورة، فلا بد من دليل، فإذا لم يقم دليل على صدقِه من نص أو إجماع فإن تقليده اتّباع على جهل.

ثانياً: أنْ المقلّد إمّا أنْ يكون الخطأ في حقه جائزاً أو محالاً، فإنْ كان جائزاً فإن مذهبه مشكوك في صحته، وإنْ قال قائل بأنه محال فبم عرف استحالته؟ بضرورة أم بنظر أم بتقليد؟ وحيث إنه لا ضرورة ولا دليل على استحالة خطأ من يقلّد من المجتهدين، فان التقليد باطل وتحكّم بلا بيّنة.

ثالثاً: أن المعرفة لا تحصل إلا بالنظر والاستدلال، فمن ترك النظر ورضي بالتقليد طلباً للسلامة وخوفاً من الوقوع في الخطأ؛ فان خطأ المقلّدين وضلالهم أكثر بكثير من خطأ المجتهدين.

وأكّد القرطبي(11) أنه لا يسمى مقلّداً من اتبع الدليل النقلي من القرآن والسنة وإجماع السلف؛ لأنه اتّباع للتنزيل وللرسول ﷺ، والهدى كله فيما جاء به الوحي، فمن اتبَع الوحي فإنما يخاصم ويجادل بالدليل والبرهان لا بالتقليد.

وشر الناس في رأي العقاد(12) هو من يحرّم على خلْق الله أنْ يفكروا ويتدبروا بعد أنْ أمرهم الله بهما، وأنبأهم بعاقبة الذين لا يفكرون ولا يتدبرون؛ وذلك لأنه يقضي على خلق الله بالحرمان من نعمة العقل والتفكير المؤدي للعلم والصلاح.

وكان أكثر ما يثير أهل الجاهلية هو تسفيه أحلام آبائهم وأجدادهم المقلّدين، وقد ورد في القرآن الكريم ذم التقليد بجميع وجوهها، سواء كان تقليداً للآباء ولأعرافهم المتوارثة عنهم، أم كان تقليداً لرأي الأغلبية، وجاءت الدعوة فيه صريحة للمشركين بأن يتفكروا مثنى وفرادى، في قوله تعالى في سورة سبأ (46) ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أنْ تقوموا لله**

مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إنْ هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ قال الزمخشري(13) في تفسيرها: ((والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى أنْ الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الروية، ويخلط القول، ومع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الإعتساف، ويثور عجاج التعصب، ولا يسمع إلا نصرة المذهب)).

ويرى العقاد(14) أنّ أخطر أنواع التقليد هو تقليد أصحاب الرياسات الدينية؛ وذلك لأن الحاكم المستبد يتسلط على الضمير من خارجه، ولا يستهويه من باطنه، وقد يكون حافزاً للعقل إلى الرفض والإنكار والمقاومة، فهي مشكلة مكان، أمّا تقليد الرياسات الدينية فهو أشد خطراً؛ لأنه يقترن بالقدوة الخادعة التي تكبل العقل، وتعوق التفكير، وتسيطر على الضمير من داخله فهي مشكلة عقل وضمير؛ لأنّ العادات والمعتقدات تكتسب صفة القداسة، فيرفض المقلّد الجديدَ ولو كان صواباً، ويجمد تفكيره على الخطأ القديم ويستمسك به، ثم يبحث عن الأدلة والبراهين لتأييده.

ثانياً: إتباع الهوى

وهو ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع(15).

وقد وردت كلمة (هوى) ومشتقاتها في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً كلها في معرض الذم، أولها قوله تعالى في سورة البقرة (87) **﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾**، قال القرطبي(16) في تفسيرها :((وسمي الهوى هوىً لأنه يهوي بصاحبه إلى النار، ولذلك لا يستعمل في الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه)) .

والهوى إذا استحكم ملَك على الإنسان قلبه وعقله، وعطل تفكيره؛ فلا يرى الحقَّ والصوابَ إلا فيما يهواه، قال تعالى في سورة الجاثية (23) **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾** فهو مطواع لهوى النفس يتّبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه، وهو تعجيب لذوي العقول من هذا الجهل(17).

إنَ الاندفاع بالهوى يشلُ التفكير السليم، ويقلب ميزان الحق إلى باطل، ويوقف التقدم العلمي؛ لأنَ الهوى والعلم ضدّان لا يجتمعان، وهذا سرَ وقوف رجال الكنيسة الأوروبية في القرون الوسطى موقف العداء من العلماء ومنهجهم العلمي، ذلك المنهج القائم على التجربة والبرهان، فأفقد رجالَ الكنيسة مكاسبهم المادية والمعنوية القائمة على الهوى المناقض للموضوعية وللتجرد، وهما من أساسيات البحث العلمي النزيه(18).

ثالثاً: الكبر

وهو إعجاب المرء بنفسه، فيرى نفسه أكبر من غيره، ويُظهر من نفسه ما ليس له، وينكر الحقّ ويتعالى عن اتباعه، ولا يكتفي بعدم اتباع الحق، بل يعارضه ويعانده لما يقع في نفسه من الكِبْر الذي تنعكس آثاره على السلوك، ويعوق التفكير السليم، وقد ورد لفظ الكِبْر والتكبّر والاستكبار في القرآن الكريم في أكثر من ستين موضعاً على هذا المعنى المذموم؛ وأول هذه المواضع قوله تعالى في سورة البقرة (34) ﴿ **وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ فكان استكبار إبليس سبباً في الاعتراض على أمر الله ومعاندة الحق.

وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة كثيرة لأقوام وأفراد منعهم الكبْر عن التفكير السليم، فأنكروا الحقّ واتبعوا الباطل، ويكتفي الباحثان بالإشارة إلى قصة الوليد بن المغيرة الذي سمع القرآن فأثنى عليه بأنه ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلى، فخشي قومه أنْ يتبع الحقَ ويُسلِم، فكلّموه في ذلك، فقال: ما هو إلا ساحر يفرق بين المرء وزوجه وولده، فأنزل الله تعالى في حقه عشرين آية (11-30) في سورة المدثر. ويكتفي الباحثان بذكر الآيات (18-25) قوله تعالى ﴿ **إنّه فكّر وقدّر فقُتل كيف قدّر ثم قُتل كيف قدّر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إنْ هذا إلا سحر يؤثر إنْ هذا إلا قول البشر** ﴾. فقوله تعالى ﴿ **إنه فكّر** ﴾ تعليل للوعيد بأشد العذاب في الآخرة لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه في تفكيره وتسميته القرآن سحراً(19).

فالوليد أعجبه كلام الله تعالى في القرآن الكريم فأثنى عليه ومدحه، ثم دفعه الكِبْر لأنْ ينكر الحق الذي سمعه، ويعطل عقله وتفكيره السليم، فقال في القرآن غير الحقيقة التي اعتقدها أولاً، وحجبها بحجاب الكِبْر، وصار عنده اعتداد وركون إلى عقيدة الآباء، وصعب عليه مفارقتها.

وهكذا كلَ مستكبر يعطل حواسه، وأهمها حاسة السمع، فلا ينتفع بالحق الذي سمعه، ثم يجحده، ويرفض الإذعان للصواب الذي أقرَ به وتيقن منه(20).

وقد قال تعالى في سورة النمل (14) ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً** ﴾ وفي سورة الجاثية (7-8) ﴿ **ويلٌ لكلّ أفاكٍ أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ مستكبراً كأنْ لم يسمعها فبشره بعذاب أليم** ﴾.

فالمستكبر يتمادى على كفره، ويتعاظم في نفسه عن الانقياد، ويصرَ على الضلال بعد سماع الآيات القرآنية الواضحة الناطقة بالحق، وهو أمر مستبعد في العقول السليمة(21).

وبهذا ثبت أنَ الكِبْر عائق كبير أمام التفكير السليم، ومانع قويَ ضدَ الأحكام الصائبة، وهو نقيض الموضوعية والتجرد في البحث والنظر.

رابعاً: الوهم والظن

ورد في لسان العرب(22): توهمت أي ظننتُ.

والظن يستعمل في اليقين والشك، فهو اسم لما يحصل عن أمارة، إنْ قويت أدَت إلى العلمس، وإنْ ضعفت لم تتجاوز الوهم، فيقال علْمه بالشيء ظنون: إذا لم يوثق به، والظن المذموم هو الذي لا أمارة عليه، ولا يزيد على كونه وهْماً خادعاً وظناً كاذباً، يضادَ العلم الصحيح، ويعوق التفكير السليم، وجميع العقائد الباطلة هي من هذا القبيل؛ لذلك ورد في القرآن الكريم ذم الظن الذي هو ضد العلم اليقيني ونقيض الحق في أكثر من أربعين موضعاً، منها قوله تعالى في سورة يونس (36) **﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئاً ﴾** وقد ذكر القرطبي في تفسيره(23): ((أيْ ما يتبعون إلا حَدْساً وتخريصاً في أنها آلهة وأنها تشفع، ولاحجة معهم، وأما أتباعهم فيتبعونهم تقليداً، وفي هذه الآية دليل على أنه لا يُكتفى بالظن في العقائد)).

وقال الزمخشري(24): ((يعني إنما يُدْرَك الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظنّ والتوهم)).

وبما أنَ الظنَ المذموم نقيض الحقَ المتيقن لذلك هو قرين الهوى، قال تعالى في سورة النجم (23) **﴿ إنْ يتبعون إلا الظنّ وما تهوى الأنفس ﴾** فما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظنَ والتقليد واتباع الهوى؛ فعطلوا التفكير السليم، وخسروا العلم الصحيح، وفقدوا الإيمان المؤسس على قواعد اليقين؛ فالظنون لا اعتداد بها في شأن المعارف الحقيقية والعقائد الصحيحة؛ لأنَ الظن بفقده الدليل ينقلب شكاً ووهْماً لا يجوز الحكم به، ويصبح عائقاً كبيراً أمام التفكير السليم.

والقرآن الكريم بمحاربته للظن المذموم وغيره من العوائق إنما يؤسس القواعد الضرورية للتفكير السليم، ويطلق العقل من الأغلال المانعة من التوصل إلى الأحكام الصحيحة والعقائد السليمة.

خامساً: الخرافات وتقديس مظاهر الكون

الخرف: أصله فساد العقل من الكِبَر، والخُرافة: المستملح من الكذب وما يُتعجب منه(25).

فالخرافات إذن هي تصورات وأفكار باطلة لا دليل عليها، ويتوارثها الناس حتى تصبح بمرور الزمن أفكاراً وعقائد مقدَسة لا يجوز التفكير في عدم صحتها، ولا يجوز مخالفتها والخروج عليها، وغالباً ما تؤدي إلى تفسير مظاهر الكون والتصرف فيها إلى قوى خفية خرافية تثير في النفوس رهبة وفزعاً يشلُ التفكير السليم، ويعطِل العقل، فيلجأ الناس إلى تقديسها وعبادتها اتقاءً لشرها، ولهذا السبب عُبدت جميع مظاهر الكون، وجاء القرآن بمحاربة جميع الخرافات، فأبطل عبادة الشمس والقمر وسائر الكواكب، وبين أنها وجَميعَ مظاهر الكون مخلوقة ومسخرة بأمر الله خالقها لصالح الإنسان، فقال تعالى في سورة الأعراف (54) **﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾** وقال تعالى في سورة فصلت (37) **﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمرلا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إيـّاه تعبدون﴾**.

ولما كسفت الشمس يوم موت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، خطب الناس فبيَن أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد؛ وذلك لأنَ المنجَمين كانوا يقولون: لا ينكسفان إلا لموت عظيم أو نحو ذلك ، فأبطل النبي ﷺ هذه العقيدة الفاسدة، حتى لا يغتر بأقوالهم أحد، لاسيما وقد وافق موت ابنه إبراهيم رضي الله عنه(26)

ولم يقتصر القرآن على محاربة عبادة الشمس والقمر والكواكب، بل حارب السحر والكهانة والمنجمين المدَعين معرفة الغيب، وحارب عبادة الملائكة والجن والبشر والشجر والحجر أيضاً، من أجل إطلاق العقل في طريق التفكير السليم؛ ولأنَ الاعتقاد بهذه الخرافات يجعل العقل فريسة لها، ويصعب عليه الفكاك منها، ويجعل التفكير مكبَلاً بأغلالها، وذكر أبو زهرة(27) أنَ بعض العلماء المأسورين لمثل هذه الخرافات ينسون قواعد العلم ومناهجه حينما يكونون إزاء حوادث السحر، وما ذلك إلا لسلطان الأوهام.

فمحاربة القرآن لجميع صور الوثنية والشرك، وتعرية معبوداتها عن صفة القداسة وعن القدرة في التصرف بمصير الإنسان، والتأكيد على أنها مخلوقة لله ومسخرة للإنسان، كل ذلك من أجل إطلاق الطاقات الفكرية في الاتجاه الصحيح ، بل إنَ هذه المعبودات الوثنية وجميع المظاهر الكونية ستكون هي نفسها خاضعة للبحث العلمي والنظر العقلي(28).

وبما أن هذا الكون محكوم لله تعالى ومسخر للإنسان، فليست هناك أرواح شريرة تُحدِث الزلازل والبراكين فتدمر ما يصنعه الإنسان، وليست هناك أرواح خيرة تنزل المطر وتنبت الزرع وتجلب الخيرات للإنسان، بل كل ذلك بيد الله الواحد الأحد، وهذه العقيدة الصحيحة لا يتقبلها إلا العقل المتحرر من سلطان الخرافات، ومن الاعتقاد بسيطرة القوى الخفية الغاضبة على الإنسان، تلك العقول الرافضة لتقديس مظاهر الكون هي التي ستكون جديرة بالاكتشافات العلمية التي تسهم في الاستفادة من النواميس الكونية، والرقي بالحياة الإنسانية.

وبهذا اتضح لنا جلياً أن القرآن الكريم بمحاربته لهذه العوائق إنما أراد أنْ يؤسس القواعد المتينة التي يعتمد عليها العقل في التفكير السليم؛ وأنَّ من غلب عليه التقليد، أو تحكَّم به الهوى، أو ركب متن الاستكبار، أو سيطرت عليه الظنون والأوهام، أو عبد مظاهر الكون وصدَّق بالخرافات المنسوجة حولها، فسيكون عقله معطلاً، وتفكيره مقيداً بأغلال قوية، تمنعه من الوصول إلى الحقائق الدينية والمعارف الدنيوية، بل هو أبعد الناس عن الحق، وأقربهم إلى الباطل.

المبحث الثالث

قواعد منهجية في تنمية التفكير

التفكير مهارة تنمَّى بالممارسة والتدرب على توجيه الانتباه، وعلى فهم المعلومات والتفاعل معها، وقد وردت في القرآن الكريم إشارات ذات دلالة منهجية لتنمية التفكير، وفيما يلي عرض هذه القواعد كما يراها الباحثان:

أولاً: إثارة الدافع للتفكير

التفكير ينشط إذا سبقه موقف انفعالي يحرضه ويدفعه، وقد وردت في القرآن الكريم نماذج لإثارة الدافع الانفعالي المحرض على التفكير السليم، ويكتفي الباحثان بذكر واحد منها كمثال على بقيتها وهو موقف إبراهيم عليه السلام عندما حطَّم الأصنام وترك الصنم الكبير، ليحرض عقول عابديها على التفكير في ضعفها وبطلان عبادتها، وقد ذكر هذا الموقف في سورة الأنبياء (51-70)، ويكتفي الباحثان بذكر موضع الشاهد (الآيات 62-67) قوله تعالى

﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾.

قصد إبراهيم عليه السلام أنْ يلزمهم الحجة على ألطف وجه يحملهم على التأمل في شأن آلهتهم، ولينبههم على فساد اعتقادهم؛ لأنّ ما يتغير لا يصلح للربوبية، فتفطنوا لصحة حجته، وهداهم التفكير السليم إلى بطلان ألوهيتها، فاعترفوا بظلمهم في عبادتها، فإنْ مَنْ لا يدفع عن نفسه الفأس، لا يدفع عن عابديه البأس، ولا يستحق العبادة، ولذلك ورد في سورة الشعراء (74-72) ﴿ **قال هل يسمعونكم إذْ تدْعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾ فهو استفهام لتقرير الحجة عليهم، لكنهم نزعوا إلى التقليد من غير دليل(29).

وقد وردت في القرآن الكريم بكثرة واضحة صيغ الاستفهام الاستنكاري والتقريري والتوبيخي التقريعي؛ لأنه يشكّل دافعاً قوياً لإثارة التفكير، وبخاصة إذا كان موضوع السؤال مما يهم المخاطبين ويمس واقع حياتهم، مثل قوله تعالى في سورة القيامة (36-40) ﴿ **أيحسب الإنسان أنْ يُترك سدىً ألم يك نطفةً من منيٍّ يمنى ثم كان علقة فخلق فسوّى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾ وفي سورة النازعات (27) ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها** ﴾ وفي سورة التكوير (9-8) ﴿ **وإذا الموؤدة سئلت بأيّ ذنب قتلت** ﴾ وفي سورة الإنفطار(7-6) ﴿**يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك**﴾.

ثانياً: توجيه الفكر من الانتباه الاستسلامي إلى الانتباه المقصود

الانتباه الاستسلامي هو التفكير الاجتراري غير الإرادي، الذي تتوارد فيه الأفكار تلقائياً بين أشياء كثيرة دون غرض معين، ولا هدف محدد(30).

ولتدريب العقل على التركيز الفكري بالانتباه المقصود دور كبير في تنمية التفكير، بحيث يصبح تفكيراً استدلالياً مركزاً في مقدمات معينة، موصلاً إلى نتائج سليمة، ومحققاً الهدف منه.

وقد وردت في القرآن الكريم عدة مسالك للتوجيه الفكري الاستدلالي المقصود، فالحروف المقطعة في أوائل بعض السور، والأقسام العظيمة في أوائل بعض السور أو في متنها، كل ذلك للفت انتباه السامعين لما يلقى بعدها ، ومثلها لفت الانتباه إلى الشيء المألوف المتكرر؛ لأن إلف الشيء وتكراره على نسق واحد قد يكون حجاباً وغشاوة تحجب تركيز التفكير والانتباه إليه، فدعا القرآن الكريم إلى التأمل والتفكير حتى في الأمور المألوفة والمشاهد المتكررة؛ ليتدرّب العقل على تركيز التفكير وتوجيه الانتباه القصدي إلى كل ما

حولنا، فمثلاً قوله تعالى في سورة الغاشية (17-20) ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ فإنَ إلف العرب لهذه المشاهد أنساهم التفكير في عظمتها، وما فيها من إبداع وإتقان دالُ على عظمة الخالق ووجوب توحيده وعبادته.

فورود مثل هذه المسالك المثيرة للانتباه الفكري المركز المقصود، لهو أكبر دليل على أن التفكير السليم ينمو ويتحسن بالتدرّب والممارسة.

ثالثاً: تنمية القدرة على التخيل

إنَ قدرة الإنسان على التفكير السليم تزداد كلما كانت قدرته على التخيل أكبر، والقرآن الكريم يضرب الأمثال ويصوّر الأمور الغائبة بصورة يتخيلها العقل وكأنما هي مشاهد محسوسة مرئية؛ لمساعدة التفكير على إبطال العقائد الفاسدة، فمثلاً قوله تعالى في سورة الأعراف (40) ﴿ **إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط** ﴾ يجعل الفكر يتخيل استحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة، فكذلك استحالة دخول الكافر الجنة.

وقوله تعالى في سورة الحج (31) ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق** ﴾ يجعل الفكر يتخيل أنَ تمزق نفسية المشرك وتشتت أفكاره وتلاعب الأهواء به كمن مزقت الطير لحمه، ثم هوت به الريح في الحضيض.

وقوله تعالى في سورة العنكبوت (41) ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** ﴾ يجعل الفكر يتخيل أنَ ضعف الآلهة والأنداد من دون الله وعدم قدرتها على نفع عابديها كضعف العنكبوت وعدم قدرة بيتها على حمايتها من الأخطار، ولا يقيها حرّاً ولا برداً.

ومثل هذا ورد في القرآن كثيراً لينمّي قدرة الفكر على التخيل والمقارنة، من أجل التوصل إلى الأحكام الصائبة في مجال العقيدة الدينية والأحكام الدنيوية.

رابعاً: تنمية المهارات اللغوية

قال تعالى في سورة الرحمن (1-4) ﴿ **الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان** ﴾، والبيان هو التعبير عمّا في الضمير بالكلام الواضح، والقدرة على فهم كلام الآخرين ((لولا البيان لكان المرء بهيمة مهملة أو صورة ممثلة)) (31).

وقد قال الله تعالى في سورة البقرة (31) ﴿ **وعلّم آدم الأسماء كلها** ﴾ وذلك ليكون بيانه تاماً واضحاً، ثمّ يلقّن أولاده ألفاظ اللغة التي بها يتكلّمون ويعبّرون عن الأفكار المختلفة.

وبما أنّ الأفكار والصور الذهنية للأشياء والمعاني الكلية تنمو وتتجدّد ؛ لذلك ستتولّد ألفاظ ومصطلحات جديدة للتعبير عنها، فصارت اللغة برموزها الجديدة خادمة للمعاني، ومعِينة على فهمها وإدراكها لضرورة الربط بين الاسم والصورة، وصارت معرفة حدودها واجبة للتمييز بين المسمّيات التي تقوم بها مصلحة بني آدم(32).

واللغة هي أرقى وسيلة تم توظيفها لخدمة العقل فيما يقوم به من عمليات فكرية؛ لأن المعاني تظلّ حائرة في الذهن حتى تستقر في رموز مناسبة ، فتثبت وتتبلور وتتركز وتتحدد، وعندئذ يسهل وعيها وتذكرها واستخدامها في التفكير، كما يمكن التعامل بها ونقلها من جيل إلى جيل؛ ومن هنا ندرك الحكمة في قوله تعالى في سورة إبراهيم (4) ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم** ﴾ فيستطيع الرسول بالألفاظ المفهومة لقومه أنْ يبيَن لهم الحقائق الدينية المنزلة من الله تعالى، ويثير في أذهانهم المعاني والصور، ثم يطلب منهم التفكير فيها، والإيمان بما جاء به.

ولا شك أنّ نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين ، إشارة إلى فضل اللسان العربي وقدرته على نقل مراد الله تعالى واضحاً إلى جميع الناس، ودعوة إلى تعلم اللغة العربية وفهمها؛ لأنّ القرآن الكريم نزل بألفاظها ومصطلحاتها السليمة، الدالة على المعاني الصحيحة بلا اشتباه ، فكلما أتقن الإنسان اللغة العربية كان ذلك عوناً له على إتقان مهارة التفكير السليم الضرورية لفهم مراد الله تعالى في الآيات القرآنية الكريمة، ولفهم مراد رسوله محمد ﷺ في الأحاديث النبوية الشريفة، ثم القدرةُ على التعبير عن الأفكار ونقلها للآخرين بوضوح تام، والاستماع لهم والمشاركة الفعالة في كل نقاش وحوار بناء للتوصل إلى نتائج فكرية صحيحة، وبهذا يكون القرآن الكريم قد حفظ اللغة العربية، ورسم المنهج المتكامل للتفكير السليم والحكم الصحيح.

خامساً: الإحاطة بجميع المعلومات المتعلقة بموضوع التفكير

الكشف عن العلاقات المختلفة بين الأشياء أمر ضروري للتوصل إلى نتائج صحيحة في الموضوع المراد بحثه، وكلما كانت المعلومات شاملة ومحيطة بالموضوع من جميع جوانبه قبل إصدار الحكم عليه كان التفكير سليماً ومعيناً للتوصل إلى نتائج أدق وأحكم، وبمقدار نقص المعلومات يكون التفكير محدوداً وناقصاً، ويكون إصدار الحكم جزافاً وظلماً يستحق العقوبة، لقوله تعالى في سورة يونس (39) ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذّب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾، وقوله تعالى في سورة النمل (22) عن الهدهد ﴿**فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ فالإحاطة جعلت النبأ متيقناً.

وقد جعلنا الله تعالى مسؤولين مسؤولية كاملة عن وسائل جمع المعلومات في قوله تعالى في سورة الإسراء (36) ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾ وفيه إشارة واضحة إلى الاهتمام بهذه الوسائل؛ لإعانتها على جمع المعلومات الصحيحة وتغذية الفكر بها؛ ليفحصها ويدققها، ثم يرتب المقدمات السليمة ، وليتوصل إلى الأحكام والنتائج الصحيحة.

الخاتمة

أ. النتائج

كشفت الدراسة عن النتائج التالية:

1- ورد في القرآن الكريم ذكر عدد من العمليات العقلية كالتفكر، والتذكر، والتدبر، والفقه، والاعتبار، والقرآن الكريم لم يصنف هذه العمليات العقلية ولم يبين درجاتها، وهي عمليات مترابطة متكاملة هادفة، ولذا فإن التفكير يرد في القرآن عملية عقلية شاملة لمختلف أنواع النشاط العقلي للإنسان، وله أهداف دينية ودنيوية.

2- اهتم القرآن الكريم بالحواس كوسيلة من وسائل التفكير اهتماماً كبيراً، ويدل على ذلك كثرة ذكرها في القرآن الكريم، والدعوة إلى توجيهها توجيهاً مقصوداً للإدراك والفهم، والربط بينها وبين العقل والفؤاد في كثير من آيات الكتاب الكريم، وتشبيه الذين يعطلون حواسهم بالأنعام.

3- امتنّ اللّه عز وجل في كتابه العزيز على الإنسان بتعليمه البيان، وفي هذا إشارة إلى قيمة اللغة، ودورها في التواصل ونقل المعرفة، ووصف اللّه عز وجل-القرآن بأنه عربي،

وفي هذا دلالة على منزلة اللغة العربية وخصائص اللسان العربي، وضرورة العناية باللغة؛ لأنها وسيلة التفكير والمعبرة عن محصول الفكر والنظر.

4- اشتمل القرآن الكريم على توجيهات لتنمية التفكير تتمثل فيما يلي:

أ- تحرير التفكير من العوائق التي تعيق التفكير وهي كثيرة منها: التقليد الأعمى، واتباع الهوى، والظن، والكِبْر، والأوهام والخرافات. وقد دعا القرآن إلى نبذ جميع هذه العوائق والتخلص منها.

ب- اتباع قواعد منهجية لتنمية التفكير، ومن هذه القواعد:

(1) إثارة الدافع للتفكير، والقرآن يحرض على التفكير السليم، ويثير الإنسان كي يفكر فيما حوله.

(2) التوجيه المقصود للانتباه، والقرآن يذم الغافلين ويدعو إلى الانتباه المركز المقصود للظواهر والأشياء والتفكير فيها.

(3) تنمية القدرة على التخيل، وللقرآن منهجه المميز في إثارة القدرة على التخيل والتصور، ولذلك دور كبير في تنمية التفكير.

(4) تنمية المهارات اللغوية: فاللغة ومصطلحاتها روافد التفكير، وكثير من التحسن في التفكير يحدث نتيجة لاكتساب المهارات اللغوية.

(5) الإحاطة بجميع المفاهيم والمعلومات المتعلقة بموضوع التفكير، والقرآن ينهى عن الحكم المتسرع قبل الإحاطة بالأمر من جميع جوانبه.

ب. التوصيات

في ضوء النتائج السابقة فإن الدراسة توصي بما يلي:

1- ضرورة إعادة النظر في أساليب تعليم وتعلم القرآن الكريم، وعدم الوقوف في تعلم القرآن عند مجرد إتقان الطلاب للتلاوة والحفظ، بل لابد من أن يُجمع إلى ذلك الفهم والتدبر، وأن يشجع المتعلمون على فهم الآيات وإدراك مقاصدها حسب استطاعتهم، من أجل أن يساهم القرآن في تكوين شخصياتهم، وليكون جزءاً أصيلاً في بنائهم الثقافي.

2- إيلاء القضايا المتعلقة بالتفكير والنظر والتدبر في القرآن الكريم اهتماماً أكبر في مناهج التعليم، وإيراد الآيات الداعية إلى استخدام العقل في جميع المناهج الدراسية، والربط بين الجوانب العلمية المختلفة وبين القرآن الكريم، وذلك لإزالة الفصام القائم في المناهج بين العلم والإيمان.

3- الأخذ بالتوجيهات التي تم التوصل إليها في هذه الدراسة من أجل تنمية التفكير السليم كهدف تربوي، وأخذ هذه التوجيهات والمبادئ بعين الاعتبار عند صياغة المناهج التربوية، وبخاصة للمراحل الدراسية الأولى.

4- تبني الاتجاه العلمي في التفكير، واعتماد منهج البحث العلمي التجريبي كطريقة في التربية والتعليم، مع ضرورة الانتفاع بالتوجيهات القرآنية في هذا المجال.

5- إجراء دراسات حول أثر السنة النبوية في توجيه التفكير وتنميته.

إجراء دراسات تربوية تستنير بهدي القرآن، وخاصة فيما يتعلق بالقضايا التربوية المعاصرة، وضرورة التأصيل الإسلامي للمعرفة، إذ إن هناك جوانب كثيرة تلتقي فيها التربية المعاصرة مع التربية الإسلامية.

6- حث الباحثين على متابعة الدراسات القرآنية في هذا المجال؛ لان ما ورد في هذا البحث من تعداد عوائق التفكير السليم بأنها خمسة وتعداد قواعد تنمية التفكير بأنها خمسة أيضا هو على سبيل التمثيل وليس للحصر، فيمكن للباحثين الزيادة على ذلك باستنباط عوائق أو قواعد إضافية من متابعة القراءة لكتاب الله تعالى والتدبر في معانيه.

The Method of The Holy Qura'n In Development of Thought

Mahmoud Al-Hishan and Mohammed Malkawi

Abstract

This study aimed at unveiling the Holy Quran's Approach in developing thinking. The study lies in three topics The researchers mentioned six goals of the bright thinking in the first topic as told in the Holy Qura'n.

In the second topic, they mentioned five obstacles that hinder the bright thinking that the Holy Qura'n saved the mind from.

In the third topic, the researchers elicited from the Qura'n verses five methodological rules to enrich the bright thinking. The researchers gave several recommendations that concentrated on that the learners mastering of reciting the Holy Qura'n and keeping it by heart is not enough. They have to be trained on bright logical thinking through all school stages as well as developing their scientific experimental skills.

الهوامش

* **أستلم البحث في 1999/4/6 وقبل للنشر في 2000/6/5**

(1) الجرجاني، علي بن محمد (ت816هـ=1413م): **التعريفات**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م،ص168.

(2) البيهقي، أبو بكر (ت458هـ=1066م): **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1981م، ص40 .

(3) المحاسبي، الحارث بن أسد (ت243هـ=857م): **العقل وفهم القرآن**، تحقيق حسين القوتلي، دار الكندي ودار الفكر، بيروت، 1978م، ص 266-267.

(4) عبد الرحمن، النحلاوي: **التربية بالآيات**، دار الفكر، بيروت، 1989م ، ص 60 .

(5) مالك، بدري: **التفكّر من المشاهدة إلى الشهود**، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992م، ص30-31 .

(6) عباس محمود، العقاد: **التفكير فريضة إسلامية**، نهضة مصر، القاهرة ، ص 17.

(7) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت 671هـ = 1273م): **الجامع لأحكام القرآن** (تفسير القرطبي)، ط3، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967م، 211/2.

(8) تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 245/9.

(9) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538هـ=1144م): **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** (تفسير الكشاف)، منشورات آفتاب، طهران، 305/1 .

(10) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(ت505هـ=1111م): **المستصفى في علم الأصول**، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، 388/2.

(11) تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 213/2.

(12) العقاد: التفكير فريضة اسلامية، ص 96-97.

(13) الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 294/3.

(14) العقاد: التفكير فريضة اسلامية، ص 23.

(15) الجرجاني: التعريفات، ص 257.

(16) تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 25/2.

(17) الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 512/3، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 167/16.

(18) الدسوقي، فاروق أحمد: **الإسلام والعلم التجريبي**، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، 1987م.

(19) الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،182/4.

(20) المحاسبي: العقل وفهم القرآن، ص 234.

(21) الزمخشري: الكاشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 509/3 .

(22) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي (ت 711هـ 1311م): **لسان العرب**، دار الرشاد الحديثة، ودار صادر، بيروت ، 644/12 .

(23) تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 343/8.

(24) تفسير الزمخشري: الكاشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 32/4.

(25) ابن منظور: لسان العرب، 62/9.

(26) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج(ت261هـ=875م): **صحيح مسلم بشرح النووي**، دار الفكر، 1981م، 201/6.

(27) أبو زهرة، محمد: **تاريخ الجدل**، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1980م ، ص 11.

(28) محمد، المبارك: **الإسلام والفكر العلمي**، ط1، دار الفكر، بيروت، 1978م، ص 43.

(29) بتصرف من القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 302/11 و 109/13.

(30) نوري، جعفر: **التفكير طبيعته وتطوره**، ط2، بغداد، 1977م.

(31) المحاسبي: العقل وفهم القرآن، ص207.

(32) المحاسبي: العقل وفهم القرآن، ص206 بتصرف.

تنويه

- أبحاث هذا العدد تركت على توثيقها حسب ما جاءت من الباحث؛ ففيها ابحاث وثقت بنظام الهوامش وأبحاث اخرى وثقت بحسب نظام **APA** وذلك لمقتضيات فنية.